# الفصل الأول

## تلك هى المسألة

والمسألة هى الغاية فى البساطة ، ماكان يجوز أن يختلف عليها اثنان ، مع كل ما احتدم حولها من نقاش ، وما اشتد من جدال وخلاف .

فالقصة الدينية للخليقة تنبؤك أن الله خلق آدم من تراب ، وأنه خلقه على صورته وأنه خلق أمنا حواء ، على خلاف فى التفاصيل . هل خلقها معه أم بعده ، وهل خلقها من التراب أم من ضلعه . وأن الله بعد أن أسكنهما فسيح جناته ، أهبطهما منها اذ عصيا نهيه وأكلا من الفاكهة المحرمة .

والقصة العلمية للخليقة تنبؤك أن الشمس كانت منذ أزمنة سحيقة سديما كبيرا متوهجا سابحا فى الفضاء ، خضع لجاذبية ما يحيط به من اجرام سماوية ، فانفصلت عنه الكواكب ومنها المجموعة الارضية . وأن قشرة الارض الخارجية انكمشت متأثرة بعوامل البرودة فهبطت منها أجزاء أصبحت البحار والمحيطات ، وارتفعت بقاع أصبحت القارات . وأن الحياة بدأت أولا فى الماء ـــ على القول الراجح ـــ وأن تلك الكائنات الاولية ظلت سابحة فى بيئتها المائية حتى ألجأتها ظروف الى اليابسة ، فتكيف ما عاش منها بالبيئة الجديدة الهوائية محورا أعضاء ، بما يلائمها . ونشأت عن ذلك التطور حيوانات برمائية ـــ تعيش فى الماء والهواء ـــ تطورت بعدها الى الزواحف البرية ، وهذه تطورت الى الحيوانات الثديية ، ومنها الانسان .

ضع أمامك ذلك الدليل العقلى ـــ المستمد من قصة الخليقة فى رواية الدين وفى رواية العلم سواء ـــ لتقرنا على أن تلك هى المسألة ، وعلى أنها حقا وبغير تعمق هى الغاية فى البساطة .

والمسألة هى ما ينشره البعض ، مابين مغرض ومخدوع ، من أن الشعب الالمانى

ـــ بأغلبيته الساحقة ـــ مسئول عن حربى سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٣٩ . وأن مارآه العالم منه مرتين فى جيلنا الحالى من محاولة السيطرة على العالم ، ان هو الا تعبير عن صفة عجيبة فى طبيعة الالمان منذ القدم ، الامر الذى يقتضى أخذهم ـ فى مجموعهم وكشعب ـ بالشدة الحازمة والعقاب الشديد .

وزعيم هذه المدرسة هو اللورد فانسيتارت الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية . وقد نشر نظريته هذه وبشر بها فى كتابين له « السجل الاسود » سنة ١٩٤٣ و « موضوع للمناقشة » سنة ١٩٤٥ ، لقيا رواجا واسعا ، لانهما طلعا على الناس بتلك النظرية فى الوقت الذى كانوا يذوقون من ألمانيا ويلات الحرب .

ويقول فانسيتارت أن الشعب الالمانى كان فى الحرب العالمية الثانية أكثر اتحادا وتصميما على الحرب منه فى الحرب الاولى . وأن هتلر يمثل الشعب الالمانى تمثيلا أصدق من تمثيل القيصر غليوم الثانى . وأن الجيش الامبراطورى السابق كان قمينا بالتمرد والعصيان لو أنه استهدف لمثل ما استهدف له الجيش الهتلرى . وأن الشعب الالمانى كان قمينا بالثورة والتحطم لو أنه استهدف لمثل ما استهدف له فى عهد هتلر من الغارات الجويه الرهيبة : ولكن الشعب الالمانى وجيشه لم يثورا ولم يلحقهما التحطيم ـــ فى هذه المرة الثانية ـــ لان الالمان كانوا يزدادون على الايام صلابة وعناداً ، ويزدادون تعصبا واسرافا ، وكانت تقوى فى نفوسهم الرغبة الشرهة فى التسلط على العالم واذلال شعوبه

ونحن ، من بعد ذلك لانتصور وجود شعب معتد بطبعه ، ذلك بأن قصة الخليقة الدينية والعلمية ، تنبؤنا أن سكان هذا الكوكب يرجعون الى آدم وحواء ، أو يرجعون الى خلية أولى تطورت . وهذه القصة أو تلك تنفى ـــ ابتداء ـــ نظرية تفرد شعب بعينه بصفة الاعتداء والوحشية ، لان أصل شعوب الارض واحد ، أيا كان ذلك الاصل

وحسبك ، من بعد ذلك ، أن تمحص نظرية فانسيتارت لتقف على فسادها . فهى تقوم على قضيتين أساسيتين ـــ أولاهما أن جميع الشعوب تقدمت من الوجهتين الاخلاقية والسياسية وأن الشعب الالمانى تخلف عنها . وثانيتهما أن علة انحدار الشعب الالمانى فى أخلاقه وسياسته ترجع الى أنه أسىء تعليمه وأسيئت تربيته خلال المائة والخمسين السنة الماضية .

أما القضية الاولى فلا سبيل للتسليم بها على ما سنفصله لك . وأما القضية الثانية

فهى محور دفاعنا عن « ألمانيا الاخرى » والعمود الفقرى فى تفنيدنا لمبدأ الفانسيتارتية .

ذلك بأنه من المتفق عليه بين علماء النفس أن البيئة أبعد أثرا من الوراثة فى تكوين الخلق والشخصيه . وأن الطفل عند مولده يكون خلوا من العادات ، وأن تكونها فيه يتوقف على مايلقاه فى نشأته الاولى من رياضة وتربية .

أو لا ترى — اذن — تناقضا بين اقرار فانسيتارت بسوء تربية الشعب الالمانى وفساد توجيهه — وهى مسألة حاسمة فى تكوين الخلق — وبين الادعاء بأن الروح الحربية متأصلة فى طبيعته ؟ أو لاتهدم القضية الثانية مبدأ — الفانسيتارتية بأسره ؟

وواقع الامر أن الشعب الالمانى كغيره من الشعوب يكره الحرب وينفر منها . وهو أبعد مايكون عن التفرد بالعنف . وانما هو فى هذا — أو فيما يبدو فيه من هذا — لايشذ عن غيره ، فالعنف من طبيعة البشر كمظهر لغريزة المحافظة على البقاء

ولقد وجه اينشتين سؤالا الى فرويد عما اذا كانت ثمة وسيلة لانقاذ البشرية من تهديد الحرب ، فكتب اليه فرويد فى سبتمبر سنة ١٩٣٢ خطابا وكان مما قاله فيه :

انك تدهش من سهولة انتقال عدوى حمى الحرب الى الرجال ، وتظن أن الانسان تكمن فيه غريزة نشطة للكراهية والتخريب ، تنقاد بسهولة لهذا اللون من المؤثرات ، وانى لعلى اتفاق كامل معك على هذا ، لانى أعتقد بوجود تلك الغريزة ، وعكفت أخيرا — فى جهد ونصب — على دراسة مظاهرها وأعراضها ، واعتقادنا ، نحن معشر محللى النفس ، أن الغرائز البشرية نوعان — الغرائز التى تجمع ( وهى التى تحفظ النوع أو الشخص ) والغرائز التى تفتك وتقتل ، على أنه يندر أن تعمل أية غريزة وحدها ، ولكنها تعمل ممتزجة بالنوع الآخر ومختلطة مع شىء منه ، وهكذا تجد مثلا أن غريزة المحافظة على البقاء ، وهى غريزة عشقية — تستلزم لتحقيق الغرض منها عملا اعتدائيا

أما ماينسبونه اليه من عيوب فقائم فى غيره ، وهو أبعد مايكون عن التفرد بها خلافا لما يقوله فانسيتارت

ذلك بأن ظاهرة « الوطنية الاشتراكية » — وهتلر كان روحها المتجسدة — لاسبيل الى فهمها ، اذا اعتبرتها نبتا ألمانيا تفردت به ألمانيا دون غيرها من الدول ، ويكشف عن عقلية لايشاركها فيها غيرها ويعكس خصائص ألمانية بحتة لانظير لها فى غيرها من الامم

فالتاريخ المعاصر ينبؤك أن « الوطنية الاشتراكية »ان هى الا سمة ألمانية للفاشية وأن الفاشية لاهى بالالمانية ولا هى بالايطالية ولا هى باليابانية ، ولـكنها ظاهرة دولية انتشرت فى مختلف بقاع العالم .

فلقد شاهدنا الفاشـية وأفـكارها ، وبغير خلاف جوهرى فى فلسفتها وأغراضها ووسائلها ، بل وفى أسـاليبها وتعبيراتها اللغوية ، شاهدناها تنبت فى ايطاليـا واليـابان وانجلترا وفرنسا والنمسا والبرتغال وأسبانيا واليونان وأستونيا وليتوانيا وأمريكا ومصر وفى غيرها من الدول ، تماما كما نبتت فى ألمانيا ، لها انجيل واحد ومعتقدات واحدة ، تقديس الزعيم ، وفناء الفرد فى الدولة .

فنجد فى فرنسا هيئة الـ Croix de Feu وفى بلجيكا الـ Rexist وفى المجر الـ Arrow Cross وفى الولايات المتحدة الـ Black Legion والـ Silver Shirts وفى الدانيمرك الحزب النـازى الدانمركى ، وفى ليتوانيـا الـ Iron Wolves وفى لاتفيا الـ Baltic Brotherhood وفى مصر القمصان الخضراء وفى فلسطين الـRevisionistsوكذا فى هولندة والصرب والسويد ، وفى غيرها .

ولقد بشر بها الفاشيون فى كل مكان ، ودعوا اليها بعشرات اللغات ، لقد اختلفت مميزاتها الخارجية ـــ حقا ـــ تبعا لاختلاف الدول التى ظهرت فيها ، وتبعا لاختلاف تقاليد سكان تلك الدول وأمزجتهم وطبائعهم وظروفهم التاريخية ، ولـكن جوهر مادتها كان هو هو لم يتغير .

واليابان مثلا تفصـلها عن ألمانيا جغرافيـا عوالم ودنى بأسرها ، وتفرقهما ثقافيا خلافات بينة ، وتقاليدهما متباينة مختلفة ، ومع ذلك فقد اعتنقت لونا من الفاشية استفحل فيها بأشد مما استفحل فى ألمانيا ، فاحتفظت ببرلمان صورى ، أسوة بريشستاغ هتلر ، أما الاحزاب فقد حلها رئيس الوزراء الامير كونوى سنة ١٩٤٠ كما حل هتلر الاحزاب البرلمانية ، فلا تجد بها سوى حزبا حكوميا واحدا ، يتحصل برنامجه فى الغاء الحرية ومحو كيان الفرد ، والقضاء على كافة النظريات السياسـية التى تعتنقها الديمقراطيـة ، وتغليب الطبقة العسكرية على ماعداها من الطبقات ، وتقديس الدولة وتمجيد الزعيم ، واعتباره ظل الله على الارض ومبعوث العناية الالهية .

واذن ـــ وهو مانلفت اليه النظر ـــ فطالما أن الفاشية قد ظهرت أعراضها فى

جميع أنحاء العالم ، فلا يسوغ لمنصف أن يدعى أن الفاشية نبت ألمانى تفردت به ألمانيا ، وأنها من الطبائع الموروثة عن خصائص الجنس الالمانى .

أما نظرية التفوق الجنسى — وهى النظرية التى دأبت الدعاوة المغرضة أو الجاهلة على نسبتها الى ألمانيا ، فليست بدورها نتاجا ألمانيا ، ولعلك تدهش — كما دهشت من قبلك — اذا عرفت أن أول من نادى بتفوق الجنس الارى — الجرمانى — هو المؤرخ الفرنسى دى جوبينو De Gobineau وتبعه فيها أتباع متحمسون :

ولباب نظرية النازى وحجتهم — فى هذا الخصوص — أن المميزات الجسدية والنفسية متصل بعضها ببعض ، لاسبيل الى فصمها ، وانها تثبت دائما عن طريق الوراثة وأن أثر الوراثة حاسم فى تشكيل الخلق وفى نشوء الافكار وتطورها ، وفى تحديد مستوى الكفايات ومرتبتها ، أما أثر البيئة — بالنسبة لاثر الوراثة — فقليل الاهمية أو معدومها ( ولقد مر بك الرأى العلمى الحديث وهو على نقيض ذلك ) .

ويضيف أنصار هذه النظرية أنه ثمة أجناس نقية وأخرى غير نقية ، وأن النقية بدورها تنقسم الى ممتازة ودنيا ، ويعتبرون الاجناس النقية — بنوعيها — فوق الاجناس المختلطة ، أو المنغولة الفاسدة الاصل ، وأعظم الاجناس النقية عندهم هو الجنس الجرمانى ( الجنس الآرى ، سكان الاصقاع الشمالية ) ويقولون أن الجنس الآرى قد أعد — بوصفه الجنس الممتاز — ليسود العالم والمدنيات ، وليحكم جميع الشعوب — وهى دونه — وكل الطبقات الاجتماعية — وهو فوقها :

ولقد ظل الشعب الالمانى يسمع هذا اللون من الافكار ويقرؤه فى بحوث العلماء ينشرون فيه فكرة التفوق الجنسى ، وحطة بقية الاجناس ، بمن فيهم حلفاؤهم اليابان ، حلفاء آخر الزمان ، وكان فيشت Fichte فى مقدمة المروجين لتلك الفكرة .

على أننا ينبغى أن نذكر أن ذلك التفوق الجنسى الذى ادعاه فيشت للالمان ، وأن تلك السيادة التى عقد لواءها لهم ، ادعاها مازينى وجيوبرتى للطليان ، وادعاها جيزو وآخرون للسويسريين ، وكانت كل أمة فخورة بعظمتها الروحية أو السياسية ، تعتبر نفسها « الشعب المختار » ، فاليهود والاغريق القدماء والرومان والفرنسيين من القرن السابع عشر الى القرن العشرين ، ثم الروس والامريكان ، أحسوا جميعا أنه من حقهم بل ومن واجبهم أن يتزعموا العالم ويقودوه الى العصر الذهبى الالفى السعيد :

ولم يسلم الانجليز ـــ دعاة الديمقراطية والمساواة ـــ من عيب الايمان بتفوقهم الجنسى ، ولندع جانبا مايحسه كل فرد منا عندما يتصل بانجليزى من العنجهية والكبرياء تهبان بسمومها عليه ، خشية أن يقال أنه أحساس يصوره لنا الحقد :

ولنقرأ ما قاله مؤرخهم وزعماؤهم ووزراؤهم :

يقول ستيد « ان الجنس الناطق بالانجليزية هو واحد من وكلاء الله الاساسيين لتنفيذ التحسينات المقبلة المزمع ادخالها على الجنس البشرى » :

ويقول سيسيل رودز ، « عقيدتى أننا أول جنس فى العالم ، وأنه كلما اتسعت البقاع التى نقطنها ، كلما كان ذلك لخير الجنس البشرى » ، فهو يدعو كما ترى الى الاستعمار الانجليزى محاولا أن يلبس المستعمر ثوب الملك الطاهر الذى لايبغى الا الاصلاح .

ويقول دوف كوبر وزير الحربية فى وزارة تشمبرلين فى اذاعة له يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٤٢ « أننا أعظم شعب على الارض » ولكنه لايقنع بذلك ، فيستدرك « ولعلنا أعظم شعب ظهر فى العالم » :

ويقول تشرشل « ان مصير العالم أصبح مرتبطا بمصير الامبراطورية البريطانية ومجدها » يا للتواضع !

ويذهب لورد ايلتون الى وجوب سيادة الانجليز للعالم على أساس تفوقهم الجنسى وهكذا بغير استثناء .

واذن فالتفوق الجنسى ليس عقيدة ألمانية فحسب ، ولكنه أيضا ظاهرة عامة مرت بها كثير من الدول فى بعض فترات التاريخ ، وتتصف بها الى اليوم كبيرة معسكر الديمقراطيات :

أما الميل الى الفتح والغزو فمسألة تستوى فيها ألمانيا مع انجلترا وفرنسا وروسيا قضاتها اليوم .

وحسبك أن تقرأ ماكولى فى كتابه « تاريخ انجلترا » حيث ينبؤك أن عاطفة الحرب والميل الى الغزو كانت تملأ صدور الناس فى انجلترا من الملك ادوارد الثالث الى رجل عامة الشعب

ولتقرأ ماكتبه كاتو Cato عن الفرنسيين « يتمسك الغال بأمرين فى حماس منقطع النظير : الاعمال الحربية والصمت » : وتقصى تاريخهم ينبؤك أنهم أثاروا أربعة حروب فى الثمانية العشر السنة التى حكمها نابليون الثالث ، واحدى عشر حربا فى الثلاثة والعشرين السنة التى عاشتها الجمهورية الاولى تحت عهد نابليون الاول ، وثلاثة حروب دامت عشرين سنة فى عهد لويس الرابع عشر ، ولم تكن تلك الحروب جميعا هينة . وينبؤنا التاريخ أيضا أن لويس الرابع عشر أنزل الخراب بمقاطعة البالاتينيت — احدى مقاطعات الامبراطورية الالمانية القديمة ، بأشد من الخراب الذى أنزله هتلر بمقاطعة أوكرانيا فى روسيا وينبغى أن نذكر — ونحن بصدد الحكم على خلق الالمان فى مجموعهم أن فرنسا — فرنسة لويس الرابع عشر وفرنسة نابليون الاول — أثارت حروبا متصلة الحلقات لاحراز السيادة على أوربا ، وكانت مطامع فرنسا الوطنية البعيدة الاهداف والمرامى تقض مضجع انجلترا طوال الفترة الواقعة بين عهد لويس الرابع عشر وسنة ١٩٠٣ سنة اتفاق الدولتين على تقسيم مناطق النفوذ والذى بموجبه أطلقت فرنسا يد انجلترا فى مصر .

واقرأ فى كتاب « الحرب والمدنية الغربية » لمؤلفه اللواء فولر أنباء الفتوحات التى قامت بها انجلترا وفرنسا مقارنة بفتوحات ألمانيا — « أن السنوات الواقعة بين سنتى ١٨٧٠ و ١٨٩٨ لايضارعها سوى عهد جنكيز خان ، ذلك أنه بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩٠٠ استولت بريطانيا العظمى على ٤ر٧٥٤ر٠٠٠ ميلا مربعا من الارض ، ومن سنة ١٨٨٤ وسنة ١٩٠٠ حصلت فرنسا على ٣ر٥٨٣ر٠٠٠ وفى تلك الفترة بعينها حصلت ألمانيا على ١ر٠٢٦ر٢٠٠ ميلا مربعا » .

وفى ايطاليا قامت الملكية منذ مايقرب من خمس وسبعين سنة ولكنها أثارت الى اليوم ثمانية حروب ، وروسيا — احدى الخمسة الكبار وأكبر مناوىء لهم — أثارت اثنى عشر حربا خلال الخمس والسبعين السنة الاخيرة ، متفوقة على الرقم الالمانى بسبعة بل أن الدول الصغيرة — كالمجر وبلغاريا — يفيض تاريخها بأنباء الحرب والفتوحات :

فهل يحق لنا ، أمام هذا السجل الدولى القاتم الملىء بالحروب والغزوات — ولم نشأ أن نرهقك بسجل النهب والسرقات — أن ندمغ الانجليز والفرنسيين والروس وغيرهم من أدعياء السلام بأنهم حربيين بطبعهم ؟

يقول الاستاذ هارولد لاسكى — فيلسوف حزب العمال الانجليزى ورئيس

لجنته التنفيذية — أنه من لغو الكلام والعبث الباطل أن يحاول بعضهم مساءلة الطبيعة الوطنية الالمانية أو الخلق الالمانى عن ظهور الهتلرية ، فاننا لانحيط بقدر كاف — وبصورة ملموسة — بما يسمح لنا أن نتحدث عن الخلق الوطنى — فى ثقة — بوصفه مجموعة ثابتة من العادات مستقلة عن البيئة التى تعمل فيها .

وما علينا الا أن نرقب ماوقع من تغير ملحوظ ، فى عصرنا هذا ، فى « الخلق الوطنى » لمختلف الشعوب ، لنتجنب التعميم فى الحكم ، ذلك التعميم الخطر » والذى هو سمة العصر ، لان الناس يميلون اليوم أكثر منهم فى أى عصر مضى — الى تفسير الاحداث التاريخية الكبرى بعبارات بسيطة ، فهم يريدون شخصا واحدا أو شيئا بعينه يصعدون اليه المديح أو يصبون عليه اللوم » ( انتهى كلام لاسكى ) .

خذ ماكانت تقوله مثلا الدول الكبرى — من معسكر الديمقراطية — عن أهداف ما بعد الحرب ، وما تناقض به تصرفاتها تلك الاقوال ، وتأمل ذلك الفشل الذى منيت به مؤتمرات المنتصرين بسبب الخلاف على توزيع الاسلاب واقتسام هذا الكوكب فيما بينهم ، وانظر استعباد الكبير للصغير سياسيا واقتصاديا ، وما لقيته وتلقاه الهند وايرلندة ومصر من انجلترا ، وسوريا ولبنان من فرنسا ، وتركيا من روسيا تأمل فى هذا كله وسائلهم : هل أنتم أيضا شعوب معتدية بطبعها ؟ جوابهم عن أنفسهم بالنفى فلماذا يجيبون عن غيرهم بالايجاب ؟

ولكننا نذهب — أكثر من هذا — الى أن الشعب الالمانى مسالم بطبعه يميل من الحرب وينفر منها :

قال هيملر قبل نشوب حرب سنة ١٩٣٩ الاخيرة :

« يجب أن نستكثر من معسكرات الاعتقال . لقد زودنى الفوهرر بسلطات لاتحد لاعتقال أى شخص أعتبره مشتبها فيه : اننا لن نقف عنايتنا على الجيش فى البر والاسطول فى البحر والطائرات فى الجو ، وانما أمامنا ميدان رابع ينبغى أن نعنى به — ألمانيا الداخلية ! وسيكون من اللازم فى بداية الحرب أن نقبض على الاشخاص بالجماعات ، فى صورة لم نألفها من قبل ، وأن نقتل عديدا من المسجونين السياسيين بأيدينا مباشرة ، ولا يجب أن تعمل أية فرقة فى مقاطعتها الاصلية ، كما يجب أن ننقل كل فرقة من معسكرها بعد أن تقضى فيها أسبوعين ، ولا يجب أن يتجول أفراد يحملون شارة

الموت ( عظمتان متقاطعتان بينهما جمجمة ) بمفردهم فى صورة دوريات فردية ، بل يجب أن يتجولوا جماعات ، وعندما تأزف الضرورة ويظهر الطارىء ، فعليهم بقساوة القلب المتناهية التى لاتعرف الهوادة واللين ، اننا يجب أن ندرك أن أية حرب نهمل فيها ميدان المعركة الداخلى ستؤدى بنا الى نكبة » :

وقال هتلر فى خطاب له تاريخه ١١ ديسمبر سنة ١٩٤١ يؤكد وجوب الضرب على يد المخربين الذين يعملون على الهدم والتخريب فى ميدان الوطن الداخلى ويوصى بأخذهم بالقسوة والوحشية الصريحتين ، قال :

« فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ أكدت لكم أنه لاقوة الاسلحة ولا فعل الزمن بمستطيعة أن تقهر ألمانيا ، ولكننى الآن أؤكد لاعدائى أنه لاقوة السلاح ولا فعل الزمن ولا أية شكوك داخلية بمستطيعة أن تزحزحنا أو تشككنا أو تجعلنا نتردد فى أداء واجبنا ، اننا اذ نستعرض — ونستحضر فى أذهاننا — تضحيات جنودنا ، تهون فى أنظارنا أية تضحية نبذلها فى الميدان الداخلى ، ولاحق لاى شخص — يحاول أن يتهرب من أداء ذلك الواجب — فى أن يتوقع أن نعتبره مواطنا ألمانيا »

ثم استطرد فى نفس الخطاب قائلا :

« كما أننا نتشدد بقسوة فى كفاحنا للسيطرة ، وسنكون صارمين فى كفاحنا للاحتفاظ بأمتنا ، وفى الوقت الذى يستشهد فيه الآلاف من خيرة رجالنا ، لايجب أن يتوقع الحياة أولئك الذين يحاولون تعطيل التضحيات التى تبذل فى الميدان ، ولا يهم تحت أى ستار يحاول أولئك القوم تعطيل ذلك الميدان الالمانى أو يحاول « تلغيم » مقاومة شعبنا ، أو يحاول اضعاف قوة النظام ، أو يخرب الصناعات الوطنية ، أن من يفعل ذلك موتا يموت » .

فهل كان يمكن أن يقول زعيم ألمانيا ومقربوه من الاقطاب تلك الاقوال لو أنه وثق من تأييد الشعب الالمانى لتلك الحرب الاعتدائية التى شنتها حكومته ، وهم من نعرف فى مركز يسمح لهم بتعرف حقيقة الشعب الالمانى ؟

أضف الى ذلك أن الصحف الالمانية — صحف العاصمة وصحف الاقاليم — كانت تنشر عشرات القوائم بأسماء من صدرت ضدهم أحكام اعدام أو أحكام سجن لمدد

طويلة ، عن جرائم سياسية ، والقوائم مزعجة حقا ، وبوسع الباحث المنصف أن يستدل منها على أمور كثيرة :

فمجرد قيام الحكومة الالمانية بنشر تلك الاسماء يظهر الضرورة التى تحسها لارهاب الناس والقاء الرعب فى نفوسهم ، ولو أحست بأن عامة الشعب تؤيدها لما فعلت .

ثم انه من المحقق أن المخاطرين برؤوسهم من الثائرين على النازية أقل عديدا من الثائرين الصامتين الذين تقف جرأتهم — بالكاد — عند الخط الفاصل بين الموت والحياة ، اذ يتخيلون فزع الجر الى المقصلة :

ولا تنسى عقوبة الاستماع للاذاعات الاجنبية ، وهى السجن عادة لمدد طويلة ، فانها تدلك على مبلغ ماكان يخشاه قادة الالمان من تأثر الشعب بدعاوة الديمقراطية وتعاليم السلم ، واليك ما نقله وليم شيرر فى كتابه « يوميات برلين » سنة ١٩٤١ ( ص ٢٠٩ ) « لن يلقى أية رحمة أولئك المجرمين المعتوهين الذين يستمعون الى أكاذيب العدو » وكانت العقوبة هى الاعدام لمن يذيع بين الناس ما سمعه فى المذياع .

وليس ذلك شأن الشعب المعتدى بطبعه المجرم بسليقته :

واليك — دعما لهذا النظر — لغة الارقام فليس أبلغ منها لغة اذا تحدثت :

بعد خمسة عشر شهر فقط من نزاع الروهر — بين ألمانيا وفرنسا — وعندما أخذ البؤس والحقد — المتخلفين عن فرساى — فى الهبوط من الذروة متجهين الى الحضيض ، توفى أول رئيس لجمهورية فايمر — الرئيس ايبرت — فكان لابد من اجراء استفتاء عام لانتخاب خلفه ، وكان مرشح النازى هو الجنرال لودندروف الذى حارب فى الجبهة الاماميـة غزاة الروهر من الفرنسيين والذى تجمعت فيه الميول الاستعمارية المزعومة التى ينسبونها الى الشعب الالمانى بأسره بصورة أوضح فيه منها فى سواه .

ولكن الشعب الالمانى أفصح — بوضوح — عن زهده فى الاستعمار ورغبته عنه ونفوره من الحقد الوطنى المر ، وكانت تسوية داوز — التى سيأتيك نبؤها فى الفصل الرابع — قد دخلت فى دور التنفيذ لشهور ستة سابقة على عملية انتخاب خليفة الرئيس ايبرت ( وضعت التسوية فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ ) ، وكانت ألمانيا قد أخذت تنهض من كبوتها الاقتصادية ، وكانت الجماهير قد انصرفت انصرافا كليا عن المطامع القومية العدائية

واتجهت رغبتها الى العيش فى سلام فى ظل ذلك الرخاء الاقتصادى الذى أخذت تستشعر دفئه .

ولهذا عندما توجه الالمان الى صناديق الانتخاب ، لم ينل لودندروف أكثر من ٣٠٠ر٠٠٠ صوت من ٢٧ر٥٠٠ر٠٠٠ ، وأحصيت الاصوات التى فاز بها المرشحون المعارضون للاستعمار فوجدت ١٥ر٥٠٠ر٠٠٠ نال منها الشيوعيون اثنين والديمقراطيون الاشتراكيون ثمانية ، والديمقراطيين مليونا ونصف ، والكاثوليك أربعة .

وجاء بعد ذلك انتخاب ثان — فى مارس سنة ١٩٢٥ — لم تتمكن فيه أحزاب اليسار من الاتفاق على مرشح مشترك ، فاز فيه هندنبرج رئيسا بأغلبية بسيطة ، لعدم الاتفاق على غيره من جهة ، ولانعدام شخصية أخرى بارزة قوية ، من جهة أخرى :

وبعد ثلاث سنوات — فى مايو سنة ١٩٢٨ — وقع استفتاء آخر ، حصل فيه الديمقراطيون الاشتراكيون مع الشيوعيين على ١٢ر٥٠٠ر٠٠٠ من الاصوات ، أى بزيادة مليون ونصف عما حصلوا عليه فى انتخابات سنة ١٩٢٥ . أما النازيون فقد حصلوا على ٨٠٠ر٠٠٠ صوت ، وأما حزب الشعب الالمانى — وكان حزبا استعماريا يحارب عصبة الامم ويعطل سياسة التفاهم مع فرنسا — فقد حصل — فقط — على ثلث ماحصل عليه فى الانتخابات السابقة من أصوات ( ١ر٨٠٠ر٠٠٠ من ١ر٢٠٠ر٠٠٠ ) .

وأستأذنك ، فى بضعة أرقام أخرى حاسمة ، راجيا ألا ينالك منها السأم ، عما وقع فى سنة ١٩٣٢ ، قبيل تولى هتلر السلطة .

ففى يولية من تلك السنة ، أبان اشتداد الازمة الازمة الاقتصادية ، ربح الديمقراطيون الاشتراكيون والشيوعيون — معا — ٨٠٠ر٠٠٠ صوت أكثر مما نالوه فى انتخاباتهم المظفرة سنة ١٩٢٨ ( مايو سنة ١٩٢٨ / ١٢ر٤٠٨ر٠٠٠ صوت — يولية سنة ١٩٣٢/ ١٣ر٢٢٩ر٠٠٠ ) .

وعندما عين هتلر مستشارا للريخ لم يكن للنازى سوى ١٩٧ مقعدا من ٦٤٧ ، ثم لما استقرت سلطته ، واشتدت سطوته ، وأطلق كلابه الضاربة على الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين ، بعد حريق الريشستاغ المشهور ، والذى قيل أنه من افتعال النازيين ليخلقوا منه مبرر ما انتووا من فعال الارهاب ، لم يفقد الديمقراطيون الاشتراكيون سوى مقعدا واحدا من الـ ١٢٠ مقعدا التى نالوها فى الانتخابات السابقة ، وفقد

الشيوعيون ١٩ من ١٠٠ ، وكسبت الهيئة الكاثوليكية الجديدة ثلاث مقاعد جديدة ، ونال هتلر أقل من ٤٤ ٠/٠ من الاصوات أى ما يعادل ٢٨٨ مقعدا من ٦٤٧ .

ولكيما تدرك دلالة تلك الارقام وقوة ماتفيده منها ينبغى أن تذكر أن هتلر وحزبه قد حصل على تلك النسبة البسيطة من أصوات الناخبين فى وقت أعدم فيه مئات من قادة الاشتراكيين والشيوعيين ، ومن نجت رقبته من المقصلة لم ينج هو من السجن، وكانت الصحافة مكممة وحرية الاجتماع والقول معدومة أوفى حكم المعدومة ، وعدمت أحزاب اليسار كل وسيلة للدفاع عن قضيتها :

تلك هى لغة الارقام ، وهى أصدق أنباء من الكتب ، وهى واضحة الدلالة على أن الشعب الالمانى شعب مسالم بطبعه ، يميل عن الحرب وينفر منها .

وبعد ، أفلا ترى حقا أن ماينسبونه الى الشعب الالمانى من عيوب قائم فى غيره ، وأنه حقا أبعد مايكون عن التفرد بها من دون سائر الشعوب ؟

لقد قالها شكسبير فى هملت ـــ وعلى لسانه سنة ١٦٠٢ ـــ « لو عاملت كلا بما يستحق ، فمن ذا يمكن أن يفلت من السوط ؟ » فما أصدقها من حكمة على دول القرن العشرين حماة العدالة والسلام :

* * *

ومع ذلك فان اندفاع الشعب الالمانى وراء هتلر لم يكن اندفاعا الى الحرب ، فانه ولى مستشارية الريخ فى سنة ١٩٣٣ فى وقت استحكام الازمة الاقتصادية العالمية التى لم تنج منها ألمانيا بطبيعة الحال ، فوعد الالمان بأن يلاشى الازمة ، وأن يخلق الرجاء والرخاء وأن يقدم عملا لكل فرد ، وأن يكفل الخبز لكل انسان ولقد صدقه أكثر من ثلثى الشعب الالمانى ، ولهذا صوتوا له .

ولتلحظ ـــ وهذا مهم ـــ انه لم يعد قط بمعالجة الازمة عن طريق العود الى التسلح واثارة الحرب ، بل على النقيض من ذلك ، تمسك بأن السلم هو هدفه الاسمى الذى لايسعى الى هدف سواه :

وكان أول بيان ألقاه فى الريشستاغ ـــ فى مارس سنة ١٩٣٣ ـــ يتضمن وعدا صريحا منه بأن يحافظ على السلم ، ثم ألقى خطابا آخر فى مايو سنة ١٩٣٥ فى الريشستاغ أيضا جاء فيه « ان ألمانيا الوطنية الاشتراكية ترغب فى السلم من صميم قلبها ، ألا ليت

الزعماء والحكام يريدون السلم ، فان الشعوب لم تسعى قط الى الحرب .

ولقد وثقت غالبية الشعب الالمانى بكلمة هتلر ، كما وثقت بها ساسة بريطانيا ، والولايات المتحدة الامريكية :

صدق هؤلاء الساسة هتلر رغم مارأوه منه من انتهاك معاهدة فرساى ومعاهدات لوكارنو — بعد أن وعد باحترامها — ورغم مارأوه منه من اعتداءات مسلحة متكررة فوقف تشمبرلين يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨ — غداة ميونيخ — يلوح للجماهير الانجليزية التى احتشدت فى المطار لاستقباله ، وفى يده قصاصة من الورق قائلا « سلام فى عصرنا ! » معتقدا أنه نجح فى مأموريته وأن مسألة السوديت قد سويت نهائيا الى غير رجعة ، وقاسمه الثقة فى هتلر غالبية الشعبين الفرنسى والانجليزى ولم يتوقع أحد أن يقع ماوقع بعد ذلك فى برخستجادن ثم فى جودسبرج من وضع هتلر للديمقراطيات ممثلة فى تشمبرلين أمام بلاغ نهائى ، على حد تعبير دوف كوبر وزير الحربية اذ ذاك

فاذا كان ساسة انجلترا وفرنسا وأمريكا المسئولون قد صدقوا هتلر ، مع كل ما اجتمع لهم من خبرة سياسية واسعة ومصادر طيعة لهم للمعلومات ، وكلاهما ينقص رجل الشارع فى ألمانيا ، فهل تعجب اذا آمن ذلك الرجل العادى بوعود ذلك الساحر الموهوب ، فتبعه اتباعا أعمى ؟

* * *

وثمة علة — مثلثة الاضلاع — لاندفاع الشعب الالمانى وراء هتلر ونبذه للديمقراطية ، وتلك العلة هى معاهدة فرساى وجمهورية فايمر التى تلتها والازمة العالمة التى جاءت فى ذيولها

أما معاهدة فرساى فقد خلقت نوعين من الدول ، دول تتمتع بموارد وممتلكات وكانت تسمى haves ودول ليس لها شىء من ذلك have nots وكانت ألمانيا من الفريق الثانى كما تعلم

ولما كان الرئيس ولسن قد قدر أن تنطوى نصوص فرساى على أخطاء ومظالم وأخصها ماتعلق منها بالتنظيمات الاقليمية ، فقد عمل على تضمين نصوص ميثاق عصبة الامم نصا — هو المادة ١٩ — ينظم وسيلة تعديلها واعادة النظر فيها ، وكان اعتقاده انه بعد أن تهدأ سورة الغضب التى سيطرت اذ ذاك على المنتصرين فيكونون أكثر استعدادا لتغيير تلك الحالة .

ولكن معاهدة فرساى أبرمت ، ومضت على تنفيذها سنوات ثم سنوات ، والدول المغلوبة على أمرها تنادى باعادة النظر فيها ، والدول الظافرة لاتحرك ساكنا ، مما ألجأ ألمانيا الى هتلر وحزبه .

وأما فايمر ، فقد عاشت تلك الجمهورية الوليدة أربعة عشر عاما ، مريضة تقعدها العلل عن النمو ، لقيت خلالها من الحلفاء كل اذلال ، فلم يطقها الشعب الالمانى ، وأصبح قيامها فى نظره مسبة ينبغى أن تزال ، لم يزرها وزير بريطانى واحد ، حتى اذا ما ارتقى هتلر الحكم مزمجرا ، رأينا ايدن وجون سيمون ودلادييه وتشمبرلين ، ثلاث مرات فى ميونيخ وبريختسجادن وجودسبرج ، يزورون ألمانيا — وايطاليا مجاملة لالمانيا — وكأنهم لايفهمون سوى لغة الحديد والنار .

لاتقل أنها أمور تافهة ، ولا تقبل أن يقال لك أن الالمان وحدهم ، من دون سائر الشعوب ، هم الذين يتأثرون منها .

أما الازمة العالمية الاخيرة — التى لم ينقذ العالم منها الا هذه الحرب الثانية — فقد كان أثرها حاسما فى دفع ألمانيا وراء النازية .

ذلك أنه فى خريف سنة ١٩٢٩ انشق فجأة الهيكل المقدس الذى كان قائما فى وول ستريت ( مقر البورصة الامريكية ) ، فأحدث تشققه فرقعة فزوعه ، وكانت ألمانيا فى السنوات الاربع السابقة قد بدت فى رخاء ، وكان المستقبل قد أخذ يبسم لها ، وبدت تجربة الجمهورية وكأنها قد نجحت ، حيث تمكنت السياسة الاقتصادية الجديدة من أن تستوعب العمال المتعطلين ، وارتفع مستوى المعيشة نسبيا عما كان عليه من قبل ، وبدا أنه فى ارتفاع مطرد .

على أن هذه الدنيا الخداعة لم تلبث أن اهتزت فجأة من أساسها ، فانهارت المصارف الكبرى ، وأغلقت المصانع أبوابها ، وكان لايمضى أسبوع الا ويفقد آلاف العمال والموظفين أعمالهم ومناصبهم ، ففى مارس سنة ١٩٣٠ — مثلا — أى بعد ستة شهور من انهيار وول ستريت — ارتفع رقم المتعطلين الى أكثر من مليون ومائتين وخمسين ألفا ، وفى خلال السنتين التاليتين ارتفع الرقم الى ستة ملايين وسبعمائة وخمسين ألفا ، حتى اذا ماحل شتاء سنة ١٩٣٢ لم تستوعب المصانع الا أقل من ربع أعضاء الاتحادات التجارية ، وأما مرتباتهم فقد هبطت الى خمس ماكانت عليه سنة ١٩٢٩ .

وكان طبيعيا أن يترتب على هذا التعطل الواسع الدائرة هبوط فى قوة الناس

الشرائية ، ونزول فى الاسعار ، وعلى الخصوص أسعار المنتجات الزراعية ، لافى ألمانيا وحدها بل وفى الاسواق العالمية ، ولقد جلب هذا كله الخراب على الفلاحين وأصحاب المتاجر وأصحاب المهن ، وبذلك انطفأت المصابيح ، وانفتح فضاء من الظلمات المدلهمة ، واكتسحت الناس أمواج من اليأس والقنوط .

واذا بالالمان وقد فقدوا أيمانهم بالديمقراطية ، وبالجمهورية ، وبالحرية ، واذا بشوارع المدن الالمانية وقد انبثقت فيها حوادث القتل السياسى والحرب الاهلية وحوادث الشغب والعربدة المخلة بالامن والنظام ، ولقد كانت تقض مضاجع الالمان أشباح التضخم والانهيار ، وهى هى ذلك الفزع بعينه الذى سبق أن زارهم منذ سنوات — سنوات قليلة فقط — وكانوا لايزالون يذكرون ماقاسوا من مجاعة مفزعة وقمع مخيف .

وبدا للناس كما لو أن شعبا عظيما — الالمان ولا شك — قد تولاه الجنون وركبه الخبل ، واندفعوا يتساءلون أن الازمة الاقتصادية قد مست العالم بأسره وهزت منه أركانه الاربعة ، ولم يقف أثرها عند ألمانيا وحدها ، فلماذا كان الالمان وحدهم هم الذين جن جنونهم وركبوا رؤوسهم ؟

وانه لحق هذا الذى يقال من أن كل دولة قد أصابها شىء ، ولكنه — حق أيضا — أن اصابة ألمانية كانت أشد من اصابة أية دولة أخرى . ففى سنة ١٩٣٢ مثلا وهى أسوأ سنوات الازمة الاقتصادية ، وصل التعطل بين العمال غير الزراعيين فى بريطانيا الى ٨ و ١٦ المائة ووصل فى ألمانيا الى ٣٤ المائة أى الى أكثر من الضعف ، ولتقل مثل ذلك — مع خلاف فى النسبة — عن أغلبية الدول مقارنة بألمانيا .

وينبغى أن نلحظ فى هذه المقارنة أن العمال الالمان لم تكن لهم موارد تسمح بالرجوع اليها والاستعانة بها ، من نحو ماكان للعمال الانجليز والامريكان ذلك لان مستوى المعيشة فى ألمانيا كان دونه فى انجلترا وأمريكا وكان دخل العامل الالمانى أقل من نصف دخل العامل الامريكى ، ومن ثلث دخل العامل الانجليزى .

وكان — اذن — معنى التعطل الذى أشرنا اليه فى ألمانيا ، وبتلك النسبة المروعة وبغير احتياطى لمواجهة الطوارىء ، معناه الفقر والتجرد للملايين ، وكان من أثرها أن اشتمل جماهير الالمان غم شديد ، خلق فيهم تذبذبا بين الفتنة الثورية ، وبين سرعة التصديق وسهولة الانقياد المسحر .

واليك ما قاله الكاتب الالمانى الممتاز رودلف أولدن فى كتابه « هتلر مخلب القط » يصف المرض النفسى الذى أصيبت به جماهير الشعب الالمانى بسبب ما حل بها من فقر وعوز ، قال :

«لقد تضافرت عليهم عوامل الجوع والخوف والرغبة ، فجعلت عقولهم أكثر تقبلا للوعود الشبيهة بوعود المسيح ، وجعلت منهم فرائس سلسلة القياد لاى شخص لاضمير له ، يريد استغلالهم »

« ولقد ربح كثيرون من هذه الحالة ، من ذلك مثلا رجل عجوز قذر ، كريه المنظر ، تعافه النفس ، اسمه فيسنبرج، أسس كنيسة بالقرب من برلين، وقام بمعجزات من حوادث الشفاء ، وسمى نفسه «المسيح المتجسد» وبلغ اتباعه مائة الف ، يقسمون لك بأغلظ الايمان انه المسيح الحق »

« وقام محام متخصص فى القضايا التجارية ، اسمه فينتر ، فى بلدة صغيرة وسط ألمانيا ، يعد الناس بأن يعيد قيمة ورقة بنكنوت ، فقدت كل قيمة لها فى فترة التضخم ، ووجد مائة ألف من المصدقين يعطوه أصواتهم فى انتخابات رياسة الريخ».

«وكنت أينما سرت تقابل سحره يكشفون غير المنظور ، وعرافين يقرأون أخلاق الناس من خطوطهم وكتاباتهم ، ووسطاء ، وروحانيين ، وقراء للحظ والمستقبل ، وعلماء نفس معالجين وكشاف للطوالع خبراء فى الجماهير »

« ولقد دل الاحصاء — فى برلين وحدها — على أنه لا أقل من ثلاثة آلاف رجل وامرأة كانوا يعولون فى معاشهم على فن من هذه الفنون ، ومن حقنا أن نتساءل عن العدد الذى اخطأه العد والاحصاء ؟ ! »

وبعد، أفلا نلتمس للالمان عذرا اذا ما رأيناهم يتبعون هتلر، وينبذون الديمقراطية؟ أو لم ينجح حيث فشلت ؟ يقول علماء النفس — ضع نفسك موضع الطرف الآخر ، لترى مايراد ، ولتقدر مسلكه ولتعدل فى حكمك عليه ، ولو طبقنا هذه القاعدة البديهية على الالمان لانصافهم ، ولاستقرت أمور هذا العالم بعد ان طال اضطرابها .